مناظرة ابن تيمية العلنية

لدجاجلة البطائحية الرفاعية

(وهى من أعظم ما تصدى له وقام به شيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن تيمية قدّس الله روحه من إقامة فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإحياء السُنّة ومحاربة البدعة ، بعد أن أهمل ذلك الحكّام فالعلماء ففشت البدع وصار كثير منها يُعَد من شعائر الدين ، أو خصائص الصالحين ، فكان رحمه الله من أعظم المجددين) قال :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أنْ لا إله إلاّ الله رب السموات والأرضين ، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين ، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم تسليماً دائماً إلى يوم الدين

أما بعد .. فقد كتبت ما حضرنى ذكره فى المشهد الكبير بقصر الإمارة والميدان ، بحضرة الخلق من الأمراء والكُتّاب والعلماء والفقراء العامة وغيرهم ، فى أمو البطائحية يوم السبت تاسع جمادى الأولى سنة خمس ، لتشوف الهمم إلى معرفة ذلك وحرص الناس على الاطلاع عليه ، فإن مَن كان غائباً عن ذلك قد يسمع بعض أطراف الواقعة ، ومَن شهدها فقد رأى وسمع ما رأى وسمع ، ومن الحاضرين مَن سمع ورأى ما لم يسمع غيره ويره لانتشار هذه الواقعة العظيمة ، ولما حصل بها من عز الدين وظهور كلمته العليا وقهر الناس على متابعة الكتاب والسُنّة ، وظهور زيف مَن خرج عن ذلك من أهل البدع المضلة ، والأحوال الفاسدة والتلبيس على المسلمين .

• مخاريق أهل الطريق وخوارقهم :

وقد كتبت فى غير هذا الموضع صفة حال هؤلاء البطائحية وطريقهم ، وطريق الشيخ أحمد بن الرفاعى [1] وحاله ، وما وافقوا منه المسلمين وما خالفوهم ، لتبين ما دخلوا فيه من دين الإسلام وما خرجوا فيه عن دين الإسلام ، فإن ذلك يطول وصفه فى هذا الموضع ، وانما كتبت هنا ما حضرنى ذكره من حكاية هذه الواقعة المشهورة فى مناظرتهم ومقابلتهم ، وذلك أنى كنت أعلم من حالهم بما قد ذكرته فى غير هذا الموضع وهو أنهم وإن كانوا منتسبين إلى الإسلام وطريقة الفقر والسلوك ، ويوجد فى بعضهم التعبد والتأله والوَجد والمحبة والزهد والفقر والتوضع ولين الجانب والملاطفة فى المخاطبة والمعاشرة والكشف والتصرف ، ونحو ذلك ما يوجد - فيوجد أيضاً فى بعضهم من الشرك وغيره من أنواع الكفر ، ومن الغلو والبدع فى الإسلام والإعراض عن كثير مما جاء به الرسول والاستخفاف بشريعة الإسلام والكذب والتلبيس ، وإظهار المخارق [2] الباطلة وأكل أموال الناس بالباطل والصد عن سبيل الله ما يوجد .

وقد تقدَّمت لى معهم وقائع متعددة بَيَّنتُ فيها لمن خاطبته منهم ومن غيرهم بعض ما فيهم من حق وباطل ، وأحوالهم التى يسمونها الإشارات ، وتاب منهم جماعة ، وأدَّب منهم جماعة من شيوخهم ، وبيَّنت صورة ما يُظهرونه من المخاريق مثل ملابسة النار والحيَّات ، وإظهار الدم واللادن والزعفران وماء الورد

---

(١) الرفاعى : أبو العباس أحمد الحسينى ، توفى عام ٥٧٨ هـ ، صوفى من الكبار ، شافعى المذهب ، ولد فى قرية حسن من أعمال واسط بالعراق ، تفقه وتأدب وتصوف فانضم اليه خلق كثير ، وأسس الطريقة الرفاعية ، توفى بقرية أم عبيدة بالبطائح بين واسط والبصرة ، له « تفسير سورة القدر » ، و « الطريق الى الله » ، و « شرح التنبيه فى الفقه » ، وجمع كلامه فى رسالة دعيت « رحيق الكوثر » (البلتاجى) .

(٢) أطلقوا اسم المخارق والمخاريق على الخوارق المفتعلة بالحيل والتلبيس والشعوذة ، وهى فى أصل اللغة ضرب من لعب الصبيان .

والعسل والسكر وغير ذلك ، وأن عامة ذلك عن حيل معروفة وأسباب مصنوعة ، وأراد غير مرة منهم قوم إظهار ذلك ، فلما رأوا معارضتى لهم رجعوا ودخلوا على أن أسترهم فأجبتهم إلى ذلك بشرط التوبة ، حتى قال لى شيخ منهم فى مجلس عام فيه جماعة كثيرة ببعض البساتين لما عارضتهم : بأنى أدخل معكم النار بعد أن نغتسل بما يذهب الحيلة ومَن احترق كان مغلوباً ، فلما رأوا الصدق أمسكوا عن ذلك .

وحكى ذلك الشيخ أنه كان مرة عند بعض أمراء التتر بالمشرق وكان له صنم يعبده قال : فقال لى : هذا الصنم يأكل من هذا الطعام كل يوم ويبقى أثر الأكل فى الطعام بيِّنا يُرى فيه ، فأنكرت ذلك ، فقال لى : إن كان يأكل أنت تموت ؟ فقلت : نعم ، قال : فأقمت عنده إلى نصف النهار ولم يظهر فى الطعام أثر ، فاستعظم ذلك التترى ذلك وأقسم بأيمان مغلّظة أنه كل يوم يرى فيه أثر الأكل لكن اليوم بحضورك لم يظهر ذلك . فقلت لهذا الشيخ : أنا أبيِّن لك سبب ذلك . ذلك التترى كافر مشرك ولصنمة شيطان يغويه بما يظهره من الأثر فى الطعام ، وأنت كان معك من نور الإسلام وتأييد الله تعالى ما أوجب انصراف الشيطان عن أن يفعل ذلك بحضورك [1] وأنت وأمثالك بالنسبة إلى أهل الإسلام الخالص كالتترى بالنسبة إلى أمثالك ، فالتترى وأمثاله سود ، وأهل الإسلام المحض بيض ، وأنتم بلق فيكم سواد وبياض . فأعجب هذا المثل مَن كان حاضراً .

وقلت لهم فى مجلس آخر لما قالوا : أتريد أن نظهر هذه الإشارات ؟ قلت : إن عملتموها بحضور مَن ليس من أهل الشأن من الأعراب والفلاحين أو الأتراك أو العامة أو جمهور المتفقهة والمتفقرة والمتصوفة لم يحسب لكم ذلك ، فمَن معه

---

(١) لعل ذلك الشيطان من شياطين الإنس كان يأكل من الطعام فى غفلة من ذلك الأمير الخرافى ويوهمه أن الصنم أكله لمصلحة له فى التلبيس عليه .

ذهب فليأت به إلى سوق الصرف إلى عند الجهابذة الذين يعرفون الذهب الخالص من المغشوش من الصُفَر ، لا يذهب إلى عند أهل الجهل بذلك . فقالوا لى : لا نعمل هذا إلاّ أن تكون همتك معنا [1] ، فقلت : همتى ليست معكم بل أنا معارض لكم مانع لكم ، لأنكم تقصدون بذلك إبطال شريعة رسول الله ﷺ ، فإن كان لكم قُدرة على إظهار ذلك فافعلوا . فانقلبوا صاغرين .

● وضع أهل الطريق أغلال الحديد فى أعناقهم :

فلما كان قبل هذه الواقعة بمدة كان يدخل منهم جماعة مع شيخ لهم من شيوخ البر مطوّقين بأغلال الحديد فى أعناقهم [2] وهو وأتباعه معروفون بأمور ، وكان يحضر عندى مرات فأخاطبه بالتى هى أحسن ، فلما ذكر الناس ما يظهرونه من الشعار المبتدَع الذى يتميزون به عن المسلمين ، يتخذونه عبادة وديناً يوهمون به الناس إن هذا لله سر من أسرارهم ، وإنه سيماء أهل الموهبة الإلهية السالكين طريقهم ، أعنى طريق ذلك الشيخ وأتباعه - خاطبته فى ذلك بالمسجد الجامع وقلت : هذا بدعة لم يشرعها الله تعالى ولا رسوله ، ولا فعل ذلك أحد من سَلَف هذه الأمة ولا من المشايخ الذين يُقتدَى بهم [3] ، ولا يجوز التعبد بذلك ولا التقرب به إلى الله تعالى ، لأن عبادة الله بما لم يشرعة ضلالة ، ولباس الحديد على غير وجه التعبد قد كرّهه مَن كرّهه من العلماء للحديث المروى فى ذلك وهو أنّ النبى ﷺ رأى على رجل خاتماً من حديد فقال : « مالى أرى عليك حلية أهل النار »[4] ، وقد وصف الله تعالى أهل النار بأنّ فى أعناقهم الأغلال .

---

(١) أراد بهذا رشوة شيخ الإسلام بمشاركته فى هذا الجاه الباطل على حد ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ (القلم : ٩) .

(٢) رأيت مثل هؤلاء فى الهند من متصوفة الشرك .

(٣) أى يقتدى بسيرتهم لموافقتها للكتاب والسُنّة كالجنيد .

(٤) رواه النسائى وله تتمة .

فالتشبه بأهل النار من المنكرات ، وقال بعض الناس : قد ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى حديث الرؤيا قال فى آخره : « أحب القيد وأكره الغل ، القيد ثبات فى الدين » فإذا كان مكروهاً فى المنام فكيف فى اليقظة [1] .

● جعل المباح عبادة تشريع محظور وكفر :

فقلت له فى ذلك المجلس ما تقدَّم من الكلام أو نحواً منه مع زيادة ، وخوَّفته من عاقبة الإصرار على البدعة وأن ذلك يوجب عقوبة فاعله ... ونحو ذلك من الكلام الذى نسيت أكثره لبُعد عهدى به . وذلك أنَّ الأمور التى ليست مستحبة فى الشرع لا يجوز التعبد بها باتفاق المسلمين ، ولا التقرب بها إلى الله ولا اتخاذها طريقاً إلى الله وسبباً لأن يكون الرجل من أولياء الله وأحبائه ، ولا اعتقاد أنَّ الله يحبها أو يحب أصحابها كذلك ، أو أن اتخاذها يزداد به الرجل خيراً عند الله وقُربة إليه ، ولا أن يُجعل شعاراً للتائبين المريدين وجه الله ، الذين هم أفضل ممن ليس مثلهم .

● لا عبادة ولا قُربة إلا ما شرعه الله :

فهذا أصل عظيم تجب معرفته والاعتناء به ، وهو أن المباحات إنما تكون مباحة إذا جُعلت مباحات ، فأما إذا اتُخِذَت واجبات أو مستحبَّات كان ذلك ديناً لم يشرعه الله ، وجعل ما ليس من الواجبات والمستحبَّات منها بمنزلة جعل ما ليس من المحرَّمات منها ، فلا حرام إلا ما حرَّمه الله ، ولا دين إلا ما شرعه الله ، ولهذا عظم ذم الله فى القرآن لمن شرع ديناً لم يأذن الله به ، ولمن حرَّم

---

(١) أصل الحديث فى الصحيحين وهذا لفظ مسلم وبعده : فلا أدرى هو فى الحديث أم قاله ابن سيرين ا هـ - أى راويه عن أبى هريرة ، وفى رواية له إسناده إلى أبى هريرة وليس فى رواية البخارى له شىء من الشك المذكور .

ما لم يأذن بتحريمه [1] ، فإذا كان هذا فى المباحات فكيف بالمكروهات أو المحرَّمات ؟ ولهذا كانت هذه الأمور لا تلزم بالنَذْر ، فلو نَذَرَ الرجل فعل مباح أو مكروه أو محرَّم لم يجب عليه فعله كما يجب عليه إذا نذر طاعة اللّه أن يطيعه ، بل عليه كفّارة يمين إذا لم يفعل عند أحمد وغيره ، وعند آخرين لا شىء عليه ، فلا يصير بالنذر ما ليس بطاعة ولا عبادة [2] .

● ضلال بعض أهل الطريق بالتعبد بأهوائهم :

ونحو ذلك العهود التى تتخذ على الناس لالتزام طريقة شيخ معيَّن ، وعهود أهل الفتوة ورماة البندق ونحو ذلك ، ليس على الرجل أن يلتزم من ذلك على وجه الدين والطاعة للّه إلاّ ما كان ديناً وطاعة للّه ورسوله فى شرع اللّه ، لكن قد يكون عليه كفّارة عند الحِنث فى ذلك . ولهذا أمرت غير واحد أن يعدل عما أُخِذَ عليه من العهد بالتزام طريقة مرجوحة أو مشتملة على أنواع من البدع إلى ما هو خير منها من طاعة اللّه ورسوله ﷺ واتباع الكتاب والسُنّة ، إذ كان المسلمون متفقين على أنّه لا يجوز لأحد أن يعتقد أو يقول عن عمل أنه قُربة وبر وطريق إلى اللّه واجب أومستحَب إلاّ أن يكون مما أمر اللّه به ورسوله ﷺ وذلك يُعلم بالأدلة المنصوبة على ذلك ، وما عُلِمَ باتفاق الأمة أنه ليس بواجب ولا مستحَب ولا قُربة ، لم يجز أن يُعتقد أو يُقال إنه قُربة وطاعة ، فكذلك هم متفقون على أنه لا يجوز قصد التقرب به إلى اللّه ، ولا التعبد به ولا اتخاذه ديناً ولا عمله من الحسنات ، فلا يجوز جعله من الدين لا باعتقاد وقول ، ولا بإرادة وعمل ،

---

(١) بل جعله من الشرك أو الكفر المتعدى الذى هو أضر من الشرك كما بيّناه فى تفسير ﴿ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف : ٣٣) . وغيره . راجع ص ٣٩٨ - ٤٠٤ من جزء التفسير الثامن وكذا ص ١٤٣ و ١٤٧ و ١٦٤ و ١٨١ منه .

(٢) لعله سقط من هنا : طاعة وعبادة منصوبين .

وبإهمال هذا الأصل غلط خلق كثير من العلماء والعُبَّاد ، يرون الشيء إذا لم يكن محرَّماً لا يُنهى عنه بل يُقال إنه جائز [1] ، لا يفرِّقون بين اتخاذه ديناً وطاعة وبراً وبين استعماله كما تُستعمل المباحات المحضة ، ومعلوم أن اتخاذه ديناً بالاعتقاد أو الاقتصاد أو بهما ، وبالقول أو بالعمل أو بهما ، من أعظم المحرَّمات وأكبر السيئات ، وهذا من البِدع المنكرات التى هى أعظم من المعاصى التى يُعلم أنها معاصى سيئات .

* * *

فصل

فى وقائع المناظرة

فلما نهيتهم عن ذلك أظهروا الموافقة والطاعة ، ومضت على ذلك مدة والناس يذكرون عنهم الإصرار على الابتداع فى الدين ، وإظهار ما يخالف شِرعة المسلمين ، ويطلبون الإيقاع بهم ، وأنا أسلك مسلك الرفق والأناة ، وأنتظر الرجوع والفيئة ، وأُؤخر الخطاب إلى أن يحضر ذلك الشيخ لمسجد الجامع . وكان قد كتب إلىَّ كتاباً بعد كتاب فيه احتجاج واعتذار ، وعتب وآثار ، وهو كلام باطل لا تقوم به حُجَّة ، بل إما أحاديث موضوعة ، أو إسرائيليات غير مشروعة ، وحقيقة الأمر الصد عن سبيل الله وأكل أموال الناس بالباطل . فقلت لهم : الجواب يكون بالخطاب . فإن جواب مثل هذا الكتاب لا يتم إلا بذلك ، وحضر عندنا منهم شخص فنزعنا الغل من عنقه ، وهؤلاء هم من أهل الأهواء الذين

---

(١) سقط جواب « إذا » من الناسخ ، ومعناه أنهم يرون جواز جعله قُربة وعبادة . وهذا مثار كثير من البدع المحدثة . وذكر لى بعض علماء الأزهر فى هذه الأيام أن بعض كبار علمائه كانوا يتكلمون فيما ينكره الوهابية من بدع القبور وغيرها ويستحسنون ذلك فقال بعضهم منكراً : ولكنهم منعوا أن يُستشفع بأصحابها الصالحين . فقال له شيخ الأزهر (الأستاذ أبو الفضل الجيزاوى) : هذا هو الشرع . فقال المنكر : ما دليله ؟ فقال الشيخ : إنما يُطلب الدليل على الإذن به لا على المنع ، فدل هذا على أنَّ الشيخ - أيَّد الله به السُنَّة - أعلمهم .

يتعبدون فى كثير من الأمور بأهوائهم لا بما أمر الله تعالى ورسوله ﷺ : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِّنَ اللَّهِ ﴾ (١) ، ولهذا غالب وجدهم هوىً مطلق لا يدرون مَن يعبدون وفيهم شبه قوى من النصارى الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ الحَقِّ وَلا تَتَّبِعُواْ أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (٢) ، ولهذا كان السلف يسمون أهل البدع : أهل الأهواء .

● ضجيج أهل الطريق وخزعبلاتهم المؤثرة :

فحملهم هواهم على أن تجمعوا تجمع الأحزاب ، ودخلوا إلى المسجد الجامع مستعدين للحراب ، بالأحوال التى يعدونها للغلاب . فلما قضيت صلاة الجمعة أرسلتُ إلى شيخهم لنخاطبه بأمر الله ورسوله ﷺ ، ونتفق على اتباع سبيله ، فخرجوا من المسجد الجامع فى جموعهم إلى قصر الإمارة وكأنهم اتفقوا مع بعض الأكابر على مطلوبهم ، ثم رجعوا إلى مسجد الشاغر على ما ذُكِرَ لى وهم من الصياح والاضطراب ، على أمر من أعجب العُجاب ، فأرسلت إليهم مرة ثانية لإقامة الحُجَّة والمعذرة ، وطلباً للبيان والتبصرة ، ورجاء المنفعة والتذكرة . فعمدوا إلى القصر مرة ثانية ، وذُكِرَ لى أنهم قدموا من الناحية الغربية مظهرين الضجيج والعجيج ، والإزباد والإرعاد ، واضطراب الرءوس والأعضاء ، والتقلب فى نهر بَرَدى ، واظهار التوله الذى يخيلوا (٣) به على الردى ، وإبراز ما يدَّعونه من الحال والمحال ، الذى يسلمه إليهم مَن أضلوا من الجهَّال .

فلما رأى الأمير ذلك هاله ذلك المنظر ، وسأل عنهم فقيل له : هم مشتكون ، فقال : ليدخل بعضهم ، فدخل شيخهم وأظهر من الشكوى علىَّ ودعوى الاعتداء

---

(١) القصص : ٥٠ (٢) المائدة : ٧٧

(٣) كذا ، ولعل أصله : « تحيلوا » أى اتخذوا الحيل وسيلة للجاه فساقتهم إلى الردى . ذلك بأن أفعالهم التى ذكرها ولباسهم وأغلالهم لها تأثير عظيم فى قلوب العوام وأصحاب الأوهام .

منى عليهم كلاماً كثيراً لم يبلغنى جميعه ، لكن حدَّثنى مَن كان حاضراً أنَّ الأمير قال لهم : فهذا الذى يقوله من عنده أو يقوله عن اللّه ورسوله ﷺ ؟ فقالوا : بل يقوله عن اللّه ورسوله ﷺ ، قال : فأى شىء يقال له ؟ قالوا : نحن لنا أحوال وطريق يسلم إلينا [1] ، قال : فنسمع كلامه . فمَن كان الحق معه نصرناه ، قالوا : نريد أن تشد منا ، قال : لا ، ولكن أشد من الحق سواء أكان معكم أو معه ، قالوا : ولا بد من حضوره ؟ قال : نعم ، فكرَّروا ذلك فأمر بإخراجهم ، فأرسل إلىَّ بعض خواصه من أهل الصدق والدين ممن يعرف ضلالهم ، وعرَّفنى بصورة الحال وأنه يريد كشف أمر هؤلاء .

● رفق ابن تيمية وإخلاصه فى الأمر والنهى :

فلما علمت ذلك أُلقِىَ فى قلبى أن ذلك لأمر يريده اللّه من إظهار الدين ، وكشف حال أهل النفاق المبتدعين ، لانتشارهم فى أقطار الأرضين ، وما أحببت البغى عليهم والعدوان ، ولا أن أسلك معهم إلاَّ أبلغ ما يمكن من الإحسان ، فأرسلتُ إليهم مَن عرَّفهم بصورة الحال ، وأنى إذا حضرت كان ذلك عليكم من الوبال ، وكثر فيكم القيل والقال . وأن مَن قعد أو قام قدام رماح أهل الإيمان . فهو الذى أوقع نفسه فى الهوان . فجاء الرسول وأخبر أنهم اجتمعوا بشيوخهم الكبار ، الذين يعرفون حقيقة الأسرار ، وأشاروا عليهم بموافقة ما أُمِروا به من اتباع الشريعة ، والخروج عما يُنكَر عليهم من البِدع الشنيعة . وقال شيخهم الذى يسيح بأقطار الأرض كبلاد الترك ومصر وغيرها : أحوالنا تظهر عند التتار لا تظهر عند شرع محمد بن عبد اللّه . وأنهم نزعوا الأغلال من الأعناق ، وأجابوا إلى الوفاق .

ثم ذكر لى أنه جاءهم بعض أكابر غلمان المطاع [1] وذكر أنه لا بد من حضورهم لموعد الاجتماع . فاستخرتُ اللّه تعالى تلك الليلة واستعنته ،

---

(١) هذه كلمة باطلة قالها بعض الفقهاء المغرورين بالدجل فاتخذها الدجاجلة أصلاً شرعياً وحكماً إلهياً .

(٢) لعل أصله : الأمير المطاع .

واستنصرته واستهديته ، وسلكت سبيل عباد الله فى مثل هذه المسالك ، حتى ألقىَ فى قلبى أن أدخل النار عند الحاجة إلى ذلك . وأنها تكون برداً وسلاماً على من اتبع ملّه الخليل ، وأنها تحرق أشباه الصابئة [1] أهل الخروج عن هذه السبيل . وقد كان بقايا الصابئة أعداء إبراهيم إمام الحنفاء بنواحى البطائح منضمين إلى مَن يضاهيهم من نصارى الدهماء ، وبين الصابئة ومَن ضَلّ من العُبّاد المنتسبين إلى هذا الدين ، نسب يعرفه مَن عرف الحق المبين ، فالغالية من القرامطة والباطنية - كالنصيرية والإسماعيلية [2] - يخرجون إلى مشابهة الصابئة الفلاسفة ثم إلى الإشراك ثم إلى جحود الحق تعالى . ومن شركهم الغلو فى البَشر ، والابتداع فى العبادات ، والخروج عن الشريعة له نصيب من ذلك بحسب ما هو به لائق كالملحدين من أهل الاتحاد ، والغالية من أصناف العباد .

● دعاوى الرفاعية وتلبيساتهم :

فلما أصبحنا ذهبتُ للميعاد ، وما أحببتُ أن أستصحب أحداً للإسعاد ، لكن ذهب أيضاً بعض من كان حاضراً من الأصحاب ، والله هو المسبِّب لجميع

---

(١) الصابئة : أتباع نحلة تزله الكواكب . كان مقرهم فى حران ، ما بين النهرين . خرج منهم علماء وفلاسفة ، ومنجمون ، وزعموا أنهم المعنيون باسم الصابئة الوارد فى القرآن . (البلتاجى)

(٢) القرامطة : حركة دينية سياسية اجتماعية ، لا تزال حقيقتها على كثير من الغموض لانقراض أتباعها ، تنسب إلى داعيها الأول حمدان قرمط .

والباطنية : هم الذين يأخذون بالمعنى الباطن للقرآن ، ويجعلون لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً ، وأطلق المسلمون هذا الاسم على فرق عديدة كان لها شأن سياسى ، أهمها القرامطة .

والنصيرية : طائفة تقطن جبل العلويين وشمالى سورية (سهول حمص وحماة وحلب) ، دعوا كذلك نسبة إلى محمد بن نصير مؤسس الطائفة أو راعيها ، توفى سنة ٢٦٠ هـ ، وكان الحسين الخصيبى يعتبر أكبر متكلميها .

والإسماعيلية : القائلون من الشيعة بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق بعد أبيه - وانظر ص ٧٥ من هذا الجزء (البلتاجى) .

الأسباب . وبلغنى بعد ذلك أنهم طافوا على عدد من أكابر الأمراء ، وقالوا أنواعاً مما جرت به عادتهم من التلبيس والافتراء ، الذى استحوذوا به على أكثر أهل الأرض من الأكابر والرؤساء ، مثل زعمهم أنَّ لهم أحوالاً لا يقاومهم فيها أحد من الأولياء ، وأنَّ لهم طريقاً لا يعرفها أحد من العلماء ، وأنَّ شيخهم هو فى المشايخ كالخليفة ، وأنهم يتقدمون على الخالق بهذه الأخبار المنيفة ، وأنَّ المنكِر عليهم ما هو آخذ بالشرع الظاهر ، غير واصل إلى الحقائق والسرائر . وأنَّ لهم طريقاً وله طريق . وهم الواصلون إلى كُنْهِ التحقيق ، وأشباه هذه الدعاوى ذات الزخرف والتزويق . وكانوا لفرط انتشارهم فى البلاد ، واستحواذهم على الملوك والأمراء والأجناد ، لخفاء نور الإسلام ، واستبدال أكثر الناس بالنور الظلام ، وطموس آثار الرسول فى أكثر الأمصار ، ودروس حقيقة الإسلام فى دولة التتار ، لهم فى القلوب موقع هائل ، ولهم فيهم من الاعتقاد ما لا يزول بقول قائل .

قال المخبر : فغدا أولئك الأمراء الأكابر . وخاطبوا فيهم نائب السلطان بتعظيم أمرهم الباهر . وذكر لى أنواعاً من الخطاب . واللّه تعالى أعلم بحقيقة الصواب . والأمير مستشعر ظهور الحق عند التحقيق . فأعاد الرسول لى مرة ثانية فبلغه أنَّا فى الطريق . وكان كثير من أهل البدع الأضداد ، كطوائف من المتفقهة والمتفقرة وأتباع أهل الاتحاد ، مُجدِّين فى نصرهم بحسب مقدورهم ، مجهزين لمن يعينهم فى حضورهم ، فلما حضرتُ وجدت النفوس فى غاية الشوق إلى هذا الاجتماع ، متطلعين إلى ما سيكون طالبين للاطلاع ، فذكر لى نائب السلطان وغيره من الأمراء بعض ما ذكروه من الأقوال المشتملة على الافتراء ، وقال إنهم قالوا : إنك طلبت منهم الامتحان ، وأن يحموا الأطواق ناراً ويلبسوها . فقلت : هذا من البهتان .

● تلبيس الرفاعية كغيرهم بدعوى الكرامات :

وها أنا ذا أصف ما كان ، قلت للأمير : نحن لا نستحل أن نأمر أحداً بأن يدخل ناراً ولا يجوز طاعة مَن يأمر بدخول النار ، وفى ذلك الحديث الصحيح ، وهؤلاء يكذبون فى ذلك وهم كذّابون مبتدعون قد أفسدوا من أمر دين المسلمين ودنياهم ما اللّه به عليم . وذكرت تلبيسهم على طوائف من الأمراء ، وأنهم لبّسوا على الأمير المعروف بالإيدمرى وعلى قفجق نائب السلطنة وعلى غيرهما ، وقد لبّسوا أيضاً على الملك العادل كتبغا [1] فى ملكه وفى حالة ولاية حماة ، وعلى أمير السلاح أجل أمير بديار مصر ، وضاق المجلس عن حكاية جميع تلبيسهم ، فذكرت تلبيسهم على الإيدمرى وأنهم كأنما يرسلون من النساء مَن يستخبر عن أحوال بيته الباطنة ، ثم يخبرونه بها على طريق المكاشفة ، ووعدوه بالمُلك ، وأنهم وعدوه أن يروه رجال الغيب ، فصنعوا خُشباً طوالاً وجعلوا عليها مَن يمشى كهيئة الذى يلعب بأكر الزجاج ، فجعلوا يمشون على جبل المزّة وذاك يرى من بعيد قوماً يطوفون على الجبل وهم يرتفعون عن الأرض ، وأخذوا منه مالاً كثيراً ثم انكشف له أمرهم .

قلت للأمير وولده هو الذى فى حلقة الجيش يعلم ذلك وهو ممن حدثنى بهذه القصة : وأما قفجق فإنهم أدخلوا رجلاً فى القبر يتكلم ، وأوهموه أن الموتى تتكلم ، وأتوا به فى مقابر باب الصغير إلى رجل زعموا أنه الرجل الشعرانى الذى بجبل لبنان ، ولم يقرّبوه منه بل من بعيد لتعود عليه بركته وقالوا : إنه طلب منه جملة من المال ، فقال قفجق : الشيخ يكاشف وهو يعلم أن خزائنى ليس فيها هذا كله ، وَتَقرّب قفجق منه وجذب الشعر فانقلع الجلد الذى ألصقوه

---

(١) كتبغا : الملك العادل ، سلطان مصر (٦٩٤ - ٦٩٦ هـ) من المماليك البحريين ، مغولى الأصل ، ساءت الأحوال الاقتصادية فى عهده ، ثم خُلِعَ عن العرش . (البلتاجى) .

على جلده من جلد الماعز ، فذكرت للأمير هذا ، ولهذا قيل لى : إنه لما انقضى المجلس وانكشف حالهم للناس كتب أصحاب قفجق إليه كتاباً وهو نائب السلطنة بحماة يخبره بصورة ما جرى .

وذكرت للأمير أنهم مبتدعون بأنواع من البدع مثل الأغلال ونحوها ، وأنّا نهيناهم عن البدع الخارجة عن الشريعة ، فذكر الأمير حديث البدعة وسألنى عنه ، فذكرت حديث العِرباض بن سارية وحديث جابر بن عبد الله وقد ذكرتهما بعد ذلك فى المجلس العام كما سأذكره .

● عزم ابن تيمية على دخول النار لإقامة الحجة عليهم :

قلت للأمير : أنا ما امتحنت هؤلاء ، لكن هم يزعمون أنّ لهم أحوالاً يدخلون بها النار ، وأن أهل الشريعة لا يقدرون على ذلك ، ويقولون : لنا هذه الأحوال التى يعجز عنها أهل الشرع فليس لهم أن يعترضوا علينا ، بل يسلم إلينا ما نحن عليه سواء وافق الشرع أو خالفه ، وأنا قد استخرت الله سبحانه أنهم إن دخلوا النار أدخل أنا وهم ، ومَن احترق منا ومنهم فعليه لعنة الله وكان مغلوباً ، وذلك بعد أن نغسل جسومنا بالخل والماء الحار . فقال الأمير : ولِمَ ذاك ؟ قلت : لأنهم يطلون جسومهم بأدوية يصنعونها من دهن الضفادع وباطن قشر النارنج وحجر الطَلْق وغير ذلك من الحيل المعروفة لهم ، وأنا لا أطلى جلدى بشىء ، فإذا اغتسلت أنا وهم بالخل والماء الحار بطلت الحيلة وظهر الحق ، فاستعظم الأمير هجومى على النار وقال : أتفعل ذلك ؟ فقلت له : نعم ، قد استخرت الله فى ذلك وألقى فى قلبى أن أفعله ، ونحن لا نرى هذا وأمثاله ابتداءً فإن خوارق العادات إنما تكون لأمة محمد ﷺ المتبعين له باطناً وظاهراً لحُجَّة أو حاجة ، فالحجة لإقامة دين الله ، والحاجة لما لا بد منه من النصر والرزق الذى به يقوم دين الله ، وهؤلاء إذا أظهروا ما يسمونه إشاراتهم وبراهينهم التى يزعمون أنها تُبطل دين الله ، وشرعة وجب علينا أن ننصر الله ورسوله ﷺ ونقوم فى نصر دين الله وشريعته بما نقدر عليه من أرواحنا

وجسومنا وأموالنا ، فلنا حينئذ أن نعارض ما يظهرونه من هذه المخاريق بما يؤيدنا الله به من الآيات .

وليُعلم أن هذا مثل معارضة موسى للسحرة ، لما أظهروا سحرهم أيَّد الله موسى بالعصا التى ابتلعت سحرهم . فجعل الأمير يخاطب مَن حضره من الأمراء على السماط بذلك ، وفرح بذلك وكأنهم كانوا قد أوهموه أنَّ هؤلاء لهم حال لا يقدر أحد على رده ، وسمعته يخاطب الأمير الكبير الذى قدم من مصر الحاج بهادر وأنا جالس بينهما على رأس السماط بالتركى ما فهمته منه أنه قال : اليوم ترى حرباً عظيماً ، ولعل ذاك كان جواباً لمن كان خاطبه فيهم على ما قيل .

وحضر شيوخهم الأكابر فجعلوا يطلبون من الأمير الإصلاح وإطفاء هذه القضية ويترفقون ، فقال الأمير : إنما يكون الصلح بعد ظهور الحق . وقمنا إلى مقعد الأمير بزاوية القصر أنا وهو وبهادر ، فسمعته يذكر له أيوب الحمّال بمصر والمولهين ونحو ذلك ، فدلّ ذلك على أنه كان عند هذا الأمير لهم صورة معظمة، وأن له فيهم ظناً حسناً ، والله أعلم بحقيقة الحال فإنه ذُكِرَ لى ذلك .

● حرص أمير دمشق على فضيحة مدَّعى الكرامات :

وكان الأمير أحب أن يشهد بهادر هذه الواقعة ليتبين له الحق ، فإنه من أكابر الأمراء وأقدمهم وأعظمهم حُرمة عنده ، وقد قدم الآن وهو يحب تأليفه وإكرامه ، فأمر ببساط يُبسط فى الميدان ، وقد قدم البطائحية وهم جماعة كثيرون وقد أظهروا أحوالهم الشيطانية من الإزباد والإرغاء وحركة الرؤوس والأعضاء ، والطفر والحبو والتقلب ، ونحو ذلك من الأصوات المنكرات ، والحركات الخارجة عن العادات ، المخالفة لما أمر به لقمان لابنه فى قوله : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾ (١) .

---

(١) لقمان : ١٩

فلما جلسنا وقد حضر خلق عظيم من الأمراء والكُتّاب والعلماء والفقراء والعامة وغيرهم ، وحضر شيخهم الأول المشتكى وشيخ آخر يسمى نفسه خليفة سيده أحمد ويركب بعلمين ، وهم يسمونه عبد الله الكذاب ولم أكن أعرف ذلك ، وكان من مدة قد قدم عليَّ منهم شيخ بصورة لطيفة وأظهر ما جرت به عادتهم من المسا ءلة فأعطيته طُلبته ولم أتفطن لكذبه حتى فارقنى ، فبقى فى نفسى أن هذا خفى علىَّ تلبيسه إلى أن غاب وما يكاد يخفى علىَّ تلبيس أحد ، بل أدركته فى أول الأمر ، فبقى ذلك فى نفسى ولم أره قط إلى حين ناظرته ، ذكر لى أنه ذاك الذى كان اجتمع بى قديماً فتعجبتُ من حسن صنع الله أنه هتكه فى أعظم مشهد يكون حيث كتم تلبيسه بينى وبينه

● عدم جواز تعبدنا بشرع مَن قبلنا :

فلما حضروا تكلم منهم شيخ يقال له « حاتم » بكلام مضمونه طلب الصلح والعفو عن الماضى والتوبة ، وإنَّا محبيبون إلى ما طلب من ترك هذه الأغلال وغيرها من البدع ، ومتبعون للشريعة ، فقلت : أما التوبة فمقبولة قال الله تعالى : ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ﴾ (١) هذه إلى جنب هذه ، وقال تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ (٢) ، فأخذ شخيهم المشكى ينتصر للبسهم الأطواق وذكر أنَّ وهب بن منبه روى أنه كان فى بنى إسرائيل عابد ، وأنه جعل فى عنقه طوقاً فى حكاية من حكايات بنى إسرائيل لا تثبت . فقلت لهم : ليس لنا أن نتعبد فى ديننا بشىء من الإسرائيليات المخالفة لشرعنا ، قد روى الإمام أحمد فى مسنده عن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة من التوراة فقال : « أمتهوكون يابن الخطاب ، لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لو كان موسى

---

(١) غافر : ٣ (٢) الحجر : ٤٩ - ٥٠

حياً ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم » وفى مراسيل أبى داود أنَّ النبى ﷺ رأى مع بعض أصحابه شيئاً من كتب أهل الكتاب فقال : « كفى بقوم ضلالة أن يتبعوا كتاباً غير كتابهم أُنزِلَ إلى نبى غير نبيهم » ، وأنزل الله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ (١) . فنحن لا يجوز لنا اتباع موسى ولا عيسى فيما علمنا أنه أنزل عليهما من عند الله إذا خالف شرعنا ، وإنما علينا أن نتبع ما أُنْزِلَ علينا من ربنا ونتبع الشرعة والمنهاج الذى بعث الله به إلينا رسولنا كما قال تعالى : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحَقِّ ، لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ (٢) ، فكيف يجوز لنا أن نتبع عُبَّاد بنى إسرائيل فى حكاية لا تُعلم صحتها ؟ وما علينا من عُبَّاد بنى إسرائيل : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) ، هات ما فى القرآن وما فى الأحاديث الصحاح كالبخارى ومسلم ، وذكرت هذا وشبهه بكيفية قوية .

● مسألة الباطن وكونه غير الظاهر :

فقال هذا الشيخ منهم يخاطب الأمير : نحن نريد أن تجمع لنا القضاة الأربعة والفقهاء ونحن قوم شافعية . فقلت له : هذا غير مستحَب ولا مشروع عند أحد من علماء المسلمين ، بل كلهم ينهى عن التعبد به ويعده بدعة . وهذا الشيخ كمال الدين بن الزملكانى مفتى الشافعية ودعوته وقلت : يا كمال الدين ، ما تقول فى هذا ؟ فقال : هذا بدعة غير مستحَبة بل مكروهة - أو كما قال ، وكان مع بعض الجماعة فتوى فيها خطوط طائفة من العلماء بذلك . وقلت : ليس لأحد الخروج عن شريعة محمد ﷺ ولا الخروج عن كتاب الله وسُنَّه رسوله ﷺ ، وأشك هل تكلمت هنا فى قصة موسى والخضر فإنى تكلمت بكلام بَعُدَ عهدى به .

---

(١) العنكبوت : ٥١ (٢) المائدة : ٤٨ (٣) البقرة : ١٣٤

● تعجيز شيخ الإسلام لشيخ الرفاعية :

فانتدب ذلك الشيخ عبد الله ورفع صوته وقال : نحن لنا أحوال وأمور باطنة لا يوقف عليها ، وذكر كلاماً لم أضبط لفظه مثل المجالس والمدارس ، والباطن والظاهر ، ومضمونه أنّ لنا الباطن ولغيرنا الظاهر ، وأنّ لنا أمراً لا يقف [1] عليه أهل الظاهر فلا ينكرونه علينا . فقلت له ورفعت صوتي وغضبت : الباطن والظاهر والمجالس والمدارس والشريعة والحقائق ، كل هذا مردود إلى كتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ ، ليس لأحد الخروج عن كتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ ، لا من المشايخ والفقراء ، ولا من الملوك والأمراء ، ولا من العلماء والقضاة وغيرهم ، بل جميع الخلق عليهم طاعة الله ورسوله ﷺ . وذكرت هذا ونحوه .

فقال ورفع صوته : نحن لنا الأقوال وكذا وكذا ، وادعى الأحوال الخارقة كالنار وغيرها واختصاصهم بها ، وأنهم يستحقون تسليم الحال إليهم لأجلها . فقلت ورفعت صوتي وغضبت : أنا أخاطب كل أحمدي من مشرق الأرض إلى مغربها ، أي شيء فعلوه في النار فأنا أصنع مثل ما تصنعون ، ومَن احترق فهو مغلوب ، وربما قلت : فعليه لعنة الله . ولكن بعد أن نغسل جسومنا بالخل والماء الحار ، فسألني الأمراء والناس عن ذلك فقلت : لأن لهم حيلاً في الاتصال بالنار يصنعونها من أشياء من دهن الضفادع وقشر النارنج وحجر الطَلْق ، فضج الناس بذلك فأخذ يظهر القُدرة على ذلك فقال : أنا وأنت نلف في بارية بعد أن تطلى جسومنا بالكبريت . فقلت : فقم ، وأخذت أحرز [2] عليه في القيام إلى ذلك فمد يده يظهر خلع القميص ، فقلت : لا حتى تغتسل في الماء الحار والخل ، فأظهر الوهم على عادتهم . فقال : مَن كان يحب الأمير فليحضر خشباً أو يقال حزمة حطب . فقلت : هذا تطويل وتفريق للجمع ولا يحصل به مقصود ،

---

(١) وفي نسخة : لا يقدر .

(٢) كذا في الأصل ولعله : أصر عليه في القيام .

بل قنديل يوقد ، وأدخل أصبعى وأصبعك فيه بعد الغسل ومَن احترقت أصبعه فعليه لعنة اللّه ، أو قلت : فهو مغلوب ، فلما قلت ذلك تغيَّر وذل وذُكِرَ لى أن وجهه اصفر .

ثم قلت لهم : ومع هذا فلو دخلتم النار وخرجتم منها سالمين حقيقة ولو طرتم فى الهواء ، ومشيتم على الماء ، ولو فعلتم ما فعلتم لم يكن فى ذلك مايدل على صحة ما تدَّعونه من مخالفة الشرع ، ولا على إبطال الشرع ، فإن الدجال الأكبر يقول للسماء : أمطرى ، فتمطر ، وللأرض : أنبتى ، فتنبت ، وللخربة : أخرجى كنوزك ، فتخرج كنوزها تتبعه ، ويقتل رجلاً ثم يمشى بين شقيه . ثم يقول له : قم ، فيقوم [1] ، ومع هذا فهو دجال كذَّاب ملعون لعنه اللّه ، ورفعت صوتى بذلك فكان لذلك وقع عظيم فى القلوب .

وذكرت قول أبى يزيد البسطامى [2] : لو رأيتم الرجل يطير فى الهواء ويمشى على الماء ، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف وقوفه عند الأوامر والنواهى . وذكرت عن يونس بن عبد الأعلى أنه قال للشافعى : أتدرى ما قال صاحبنا ؟ - يعنى الليث بن سعد [3] - قال : لو رأيت صاحب هوى يمشى على الماء فلا تغتر به . فقال الشافعى : لقد قَصَّرَ الليث ، لو رأيت صاحب هوى يطير فى الهواء فلا تغتر به . وتكلمت فى هذا ونحوه بكلام بُعُدَ عهدى به . ومشايخهم الكبار

---

(١) كذا فى الأصل ، وفى رواية مسلم فى حديث الدجال : « قال : فيقول : أتؤمن بى ؟ قال فيقول : أنت المسيح الكذاب قال : فيؤمر به فيؤشر بالمنشار من فرقه حتى يفرق بين رجليه قال : ثم يمشى الدجال بين القطعتين ثم يقول له : قم ، فيستوى قائماً قال : ثم يقول له : أتؤمن بى ؟ فيقول : ما ازددت فيك إلا بصيرة . قال : ثم يقول : يا أيها الناس ، إنه لا يفعل بعد بأى أحد من الناس ... » الحديث اهـ من حاشية الأصل .

(٢) البسطامى : عبد الرحمن بن على ، توفى عام ٨٥٨ هـ ، متصوف ، مؤرخ ، ولد بأنطاكية ، وعاش فى القاهرة ، وتوفى ببورسة ، من أهم مؤلفاته « الفواتح المسكية فى الفواتح المكية » ، و « الدر فى الحوادث والسير » (البلتاجى) .

(٣) الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمى ، أبو الحارث المصرى ، الحافظ ، إمام أهل مصر فى عصره حديثاً وفقهاً ، توفى عام ١٧٥ هـ (البلتاجى) .

يتضرعون عند الأمير فى طلب الصلح ، وجعلت ألح عليه فى إظهار ما ادعوه من النار مرة بعد مرة وهم لايجيبون ، وقد اجتمع عامة مشايخهم الذين فى البلد والفقراء المولهون منهم وهم عدد كثير ، والناس يضجون فى الميدان ويتكلمون بأشياء لا أضبطها .

فذكر بعض الحاضرين أنَّ الناس قالوا ما مضمونه : ﴿ فَوَقَعَ الحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانْقَلَبُواْ صَاغِرِينَ ﴾ (١) ، وذكروا أيضاً أن هذا الشيخ يسمى عبد الله الكذاب . وأنه الذى قصدك مرة فأعطيته ثلاثين درهماً . فقلت : ظهر لى حين أخذ الدراهم وذهب أنه ملبِّس ، وكان قد حكى حكاية عن نفسه مضمونها أنه أدخل النار فى لحيته قدَّام صاحب حماة . ولما فارقنى وقع فى قلبى أن لحيته مدهونة وأنه دخل الروم واستحوذ عليهم

● شرط ابن تيمية فى توبة دجاجلة الرفاعية :

فلما ظهر للحاضرين عجزهم وكذبهم وتلبيسهم ، وتبيَّن للأمراء الذين كانوا يشهدون منهم أنهم مبطلون ، فرجعوا وتخاطب الحاج بهادر ونائب السلطان وغيرهما بصورة الحال وعرفوا حقيقة المحال ، وقمنا إلى داخل ودخلنا ، وقد طلبوا التوبة عما مضى وسألنى الأمير عما يطلب منهم . فقلت : متابعة الكتاب والسُّنَّة مثل أن يعتقد (٢) أنه لا يجب عليه اتباعهما أو أنه يسوغ لأحد الخروج من حكمهما ونحو ذلك ، أو أنه يجوز اتباع طريقة تخالف بعض حكمهما ، ونحو ذلك من وجوه الخروج عن الكتاب والسُّنَّة التى توجب الكفر وقد توجد القتل دون الكفر وقد توجب قتال الطائفة الممتنعة دون قتل الواحد المقدور عليه .

---

(١) الأعراف : ١١٨ - ١١٩

(٢) الأمثلة الثلاثة التى ذكرها هى لعدم متابعة الكتاب والسُّنَّة لا لمتابعتها المطلوبة ، فلعله قد سقط من هذا الموضع جملة مضمونها : والرجوع عما يخالفها مثل كذا وكذا .

فقالوا : نحن ملتزمون الكتاب والسُنّة ، أتنكر علينا غير الأطواق ؟ نحن نخلعها . فقلت : الأطواق وغير الأطواق ، ليس المقصود شيئا معيناً ، وإنما المقصود أن يكون جميع المسلمين تحت طاعة الله ورسوله ﷺ ، فقال الأمير ، فأى شىء الذى يلزمهم من الكتاب والسُنّة ؟ فقلت : حكم الكتاب والسُنّة كثير لا يمكن ذكره فى هذا المجلس ، لكن المقصود أن يلتزموا هذا التزاماً عاماً ومَن خرج عنه ضربت عنقه - وكرر ذلك وأشار بيده إلى ناحية الميدان - وكان المقصود أن يكون هذا حكماً عاماً فى حق جميع الناس ، فإن هذا مشهد عام مشهور قد توفرت الهمم عليه ، فيتقرر عند المقاتلة وأهل الديوان والعلماء والعباد وهؤلاء وولاة الأمور أنه مَن خرج عن الكتاب والسُنّة ضربت عنقه .

● كلام دجاجلة الطريق فى الصلاة :

قلت : ومن ذلك الصوات الخمس فى مواقيتها كما أمر الله ورسوله ، فإنَّ من هؤلاء من لا يُصلّى ، ومنهم مَن يتكلم فى صلاته حتى إنهم بالأمس بعد أن اشتكوا علىَّ فى عصر الجمعة جعل أحدهم يقول فى صلب الصلاة : ياسيدى أحمد شىء لله . وهذا مع أنه مبطل للصلاة ، فهو شرك بالله ودعاء لغيره فى حال مناجاته التى أمرنا أن نقول فيها : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (١) ، وهذا قد فُعِلَ بالأمس بحضرة شيخهم ، فأمر قائل ذلك لما أنكر عليه المسلمون بالاستغفار على عادتهم فى صغير الذنوب ولم يأمره بإعادة الصلاة ، وكذلك يصيحون فى الصلاة صياحاً عظيماً وهذا منكر يُبطل الصلاة .

فقال : هذا يغلب على أحدهم كما يغلب العطاس . فقلت : العطاس من الله والله يحب العطاس ويكره التثاؤب ولا يملك أحدهم دفعه ، وأما هذا الصياح فهو من الشيطان وهو باختيارهم وتكلفهم ويقدرون على دفعه .

---

(١) الفاتحة : ٥

• الأحوال الشيطانية لأهل الطريق :

ولقد حدثنى بعض الخبيرين بهم بعد المجلس أنهم يفعلون فى الصلاة ما لا تفعله اليهود والنصارى مثل قول أحدهم : أنا على بطن امرأة الإمام ، قول الآخر : كذا وكذا من الإمام ونحو ذلك من الأقوال الخبيثة ، وأنهم إذا أنكر عليهم المنكر ترك الصلاة يصلون بالتوبة وأنا أعلم أنهم متولين [1] شياطين ليسوا مغلوبين على ذلك كما يغلب الرجل فى بعض الأوقات على صيحة أو بكاء فى الصلاة أو غيرها .

فلما أظهروا التزام الكتاب والسُنّة وجموعهم بالميدان بأصواتهم وحركاتهم الشيطانية يظهرون أحوالهم . قلت له : أهذا موافق للكتاب والسُنّة ؟ فقال : هذا من اللّه حال يرد عليهم . فقلت : هذا من الشيطان الرجيم لم يأمر اللّه به ولا رسوله ﷺ ولا أحبه اللّه ولا رسوله . فقال : ما فى السموات والأرض حركة ولا كذا ولا كذا إلا بمشيئته وارادته . فقلت له : هذا من باب القضاد والقَدَر وهكذا كل ما فى العالم من كفر وفسوق وعصيان هو بمشيئته وإرادته وليس ذلك بحجة لأحد فى فعله ، بل ذلك مما زيّنه الشيطان وسخطه الرحمن .

• إقرار أهل الذمة على دينهم دون أهل البدع :

فقال : فبأى شىء تبطل هذه الأحوال ؟ فقلت : بهذه السياط الشرعية . فأعجب الأمير وضحك وقال : إى واللّه بالسياط الشرعية ، تبطل هذه الأحوال الشيطانية ، كما قد جرى مثل ذلك لغير واحد ومَن لم يجب إلى الدين بالسياط الشرعية فالبسيوف المحمدية . وأمسكت سيف الأمير وقلت : هذا نائب رسول اللّه ﷺ وغلامه ، وهذا السيف سيف رسول اللّه ﷺ ، فمَن خرج عن كتاب اللّه وسُنّة رسوله ضربناه بسيف اللّه ، وأعاد الأمير هذا الكلام وأخذ بعضهم يقول : فاليهود والنصارى يُقَرُّون ولا نُقَرُّ نحن ؟ فقلت : اليهود والنصارى يُقَرُّون بالجزية على دينهم المكتوم فى دورهم ، والمبتدع لا يُقَرّ على بدعته . فأفحموا لذلك .

---

(١) كذا فى الأصل ، ومقتضى الإعراب : « متولون » إلا أن يكون حُذِفَ من الكلام شىء فيه ناصب لقوله : « متولين » .

● المبتدع شر من الفاسق :

وحقيقة الأمر أنَّ مَن أظهر منكراً فى دا الإسلام لم يُقَرّ على ذلك ، فمن دعا إلى بدعة وأظهرها لم يُقَرّ ، ولا يُقَرّ مَن أظهر الفجور ، وكذلك أهل الذمة لا يُقَرُّون على إظهار منكرات دينهم ، ومَن سواهم فإن كان مسلماً أخذ بواجبات الإسلام وترك محرّماته ، وإن لم يكن مسلماً ولا ذِمياً فهو إما مرتد وإما مشرك وإما زنديق ظاهر الزندقة . وذكرت ذم المبتدعة فقلت : روى مسلم فى صحيحه عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه أبى جعفر الباقر عن جابر بن عبد الله أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول فى خطبته : « إنَّ أصدق الكلام كلام الله ، وخير الهَدى هَدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها [1] وكل بدعة ضلالة » وفى السُنَن عن العِرباض ابن سارية قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول الله ، كأنَّ هذه موعظة مُوَدِّع فماذا تعهد إلينا ؟ فقال : « أوصيكم بالسمع والطاعة ، فإنَّه مَن يعش منكم بعدى فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسُنَّتى وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإنَّ كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » - وفى رواية [2] : « وكل ضلالة فى النار » فقال لى : البدعة مثل الزنا ، وروى حديثاً فى ذم الزنا . فقلت : هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ ، والزنا معصية والبدعة شر من المعصية كما قال سفيان الثورى : البدعة أحبُّ إلى إبليس من المعصية ، فإن المعصية يُتاب منها والبدعة لا يُتاب منها . وكان قد قال بعضهم : نحن نُتَوِّب الناس . فقلت : مما ذا تتوِّبونهم ؟ قال : من قطع الطريقة والسرقة ونحو ذلك ، فقلت : حالهم

---

(١) لفظ مسلم : « فإن خير الحديث كتاب الله ... » إلخ .

(٢) هذه الزيادة شاذة ليست فى السنن فذكر شيخ الإسلام وحافظ السُنَّة لها غريب ، وكأنه أراد بها زيادة الترهيب .

بعد تتويبكم ، فإنهم كانوا فُسَّاقاً يعتقدون تحريم ما هم عليه ويرجون رحمة الله ويتوبون إليه أو ينوون التوبة ، فجعلتموهم بتتويبكم ضالين مشركين ، خارجين عن شريعة الإسلام ، يحبون ما يبغضه الله ، ويبغضون ما يحبه الله ، ونثبت أن هذه البدع التى هم وغيرهم عليها شر من المعاصى .

قلت مخاطباً للأمير والحاضرين : أما المعاصى فمثل ما روى البخارى فى صحيحه عن عمر بن الخطاب أن رجلاً كان يدعى حماراً وكان يشرب الخمر وكان يُضحك النبى ﷺ ، وكان كلما أُتِىَ به النبى ﷺ جلده الحد ، فلعنه رجل مرة وقال : لعنه الله ، ما أكثر ما يُؤتَى به إلى النبى ﷺ ؟ فقال النبى ﷺ : « لا تلعنه ، فإنه يحب الله ورسوله » . قلت : فهذا رجل كثير الشرب للخمر ومع هذا فلما كان صحيح الاعتقاد يحب الله ورسوله شهد له النبى ﷺ بذلك ونهى عن لعنته .

وأما المبتدع ، فمثل ما أخرجا فى الصحيحين عن علىّ بن أبى طالب وعن أبى سعيد الخدرى وغيرهما - دخل حديث بعضهم فى بعض - أنَّ النبى ﷺ كان يُقَسِّم ، فجاء رجل ناتىء الجبين كث اللحية محلوق الرأس بين عينيه أثر السجود وقال ما قال ، فقال النبى ﷺ : « يخرج من ضئضىء هذا قوم يُحَقِّر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم ، يقرؤن القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد » ، وفى رواية : « لو يعلم الذين يقاتلونهم ماذا لهم على لسان محمد لنكلوا عن العمل » ، وفى رواية : « شر قتلى تحت أديم السماء خير قتلى مَن قتلوه » .

قلت : فهؤلاء مع كثرة صلاتهم وصيامهم وقراءتهم وما هم عليه من العبادة والزهادة ، أمر النبى ﷺ بقتلهم ، وقتلهم علىّ بن أبى طالب ومَن معه من

أصحاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذلك لخروجهم عن سُنّة النبى وشريعته ، وأظن أنى ذكرت قول الشافعى : لأن يُبتلى العبد بكل ذنب ، ما خلا الشرك بالله ، خير من أن يُبتلى بشىء من هذه الأهواء .

● دعوى الرفاعية القُدرة على الإيذاء بقلوبهم وكذبهم على شيخهم :

فلما ظهر قبح البدع فى الإسلام وأنها أظلم من الزنا والسرقة وشرب الخمر ، وأنهم مبتدعون بدعاً منكرة فيكون حالهم أسوأ من حال الزانى والسارق وشارب الخمر ، أخذ شيخهم عبد الله يقول : يا مولانا ، لا تتعرض لهذا الجناب العزيز - يعنى أتباع أحمد بن الرفاعى - فقلت منكراً بكلام غليظ : ويحك ، أى شىء هو الجناب العزيز وجناب مَن خالفه أولى بالعزبار والرزجنة [1] ، تريدون أن تبطلوا دين الله ورسوله . فقال : يا مولانا ، يحرقك الفقراء بقلوبهم ، فقلت : مثل ما أحرقنى الرافضة لما قصدت الصعود إليهم وصار جميع الناس يخوفونى منهم ومن شرهم ويقول أصحابهم : إنّ لهم سراً مع الله ، فنصر الله وأعان عليهم . وكان الأمراء الحاضرون قد عرفوا بركة ما يسّره الله فى أمر غزو الرافضة بالجبل .

وقلت لهم : يا شبه الرافضة ، يا بيت الكذب - فإن فيهم من الغلو والشرك والمروق عن الشريعة ما شاركوا به الرافضة فى بعض صفاتهم ، وفيهم من الكذب ما قد يقاربون به الرافضة فى ذلك أو يساوونهم أو يزيدون عليهم ، فإنهم من أكذب الطوائف حتى قيل فيهم : لا تقولوا أكذب من اليهود على الله ، ولكن قولوا أكذب من الأحمدية على شيخهم ، وقلت لهم : أنا كافر بكم وبأحوالكم ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنظِرُونِ ﴾ [2] .

---

(١) كذا فى الأصل .

(٢) هود : ٥٥

ولما رددت عليهم الأحاديث المكذوبة أخذوا يطلبون منى كتباً صحيحة ليهتدوا بها ، فبذلت لهم ذلك ، وأعيد الكلام : إنَّه مَن خرج عن الكتاب والسُّنَّة ضربت عنقه ، وأعاد الأمير هذا الكلام واستقر الكلام على ذلك . والحمد لله الذى صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

*

هذا آخر ما جرى مع البطائحية لشيخ الإسلام وإمام الأئمة الأعلام . الشيخ تقى الدين أحمد الشهير بابن تيمية ، قدَّس الله روحه ونوَّر ضريحه ورضِىَ عنه.

« انتهى على الأصل البغدادى كسابقه »

* * *